سورة الحج

obeikandl.com

﴿ سورة الحج ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ ﴾

زلزلة الساعة أى إخراج وطرد كل ما يحجب النفس من النقاء والصفاء لأجل الوصول والترقى إلى حضرته.

فحين خروج هذه المواد من النفس لأجل تنقيتها تكون فى زلزلة عظيمة وترجرج شديد، وذلك لأجل تخليص النور من الظلمات، وإسقاط الباطل عن الحق وإزهاقه.

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢ ﴾

فليس ذهول كل مرضعة ووضعها لمولودها قبل الأوان، بأعظم من تخليص النفس وتحريرها من سلطان الهوى وبقايها الخبيثة ونفاياتها الرذيلة.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١١ ﴾

هم أهل الأحوال المتلونون، الذين لم يتمكنوا بعد من هياكلهم فهم

متقلبون متلونون.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾

أقامهم فيما أرادهم، فهم ليسوا بخارجين عن عين إرادته فيهم وإن تعددت المسميات فالكل فى إرادته سواء، منفذون لحكمه، غير قادرين على الخروج عن هذا الحكم.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ ﴾

هو سجود حقيقى غير مجازى لا يعرفه غير الساجد ومن أطلعه الله على حقيقة هذا السجود من السادة العارفين .

وهذا كمن أفهمه الله لغة الوحوش والحيوانات، كسليمان بن داود عليه السلام فإن الله علمه منطق الطير وغيره، وقد خاطب نبينا ﷺ الجمل وكلمه بلسان فصيح.

﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ ﴾

وقفت الأعيان بين يدى ربها تتنازع المعرفة فيه، فأعطى كل إناء

بما فيه ينضح، وبما فيه عُبئ.

﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾

هذه الغموم المتواصلة فيهم بسبب بقاء حجاب المعرفة .

فذل الحجاب ليس بعده ذل، وهو وبسببه يخرج العارف من غم ويعود إليه، وعذاب الحريق أهون منه، وإليه أشار العارف المرسى بقوله: والله لو حجب عنى رسول الله ﷺ طرفة عين ما عددت نفسى من جملة المسلمين.

فلو حجب عنه ﷺ مدد معرفة النبوة طرفة عين لأعد نفسه من غير المسلمين.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٢٨﴾ ﴾

يدافع عنهم لسريان المعرفة فيهم، فهم أهل الذكر الأول قال تعالى:

﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢١﴾ ﴾

فالإراثة الحقيقة لهم، فهم أهل الميراث الإلهى لا تلحق بهم هزيمة.

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

فلا يبحث المظلوم الضعيف فى أسباب ضعفه، وإنما يبحث فى قدرة الله على نصره وتأييده وأنه سبحانه رب الأضداد وقالب

الموازين والحسابات، فى أقل من لحظات، قال تعالى متحدثاً لنا عن هذا المقام: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

يدافعهم سبحانه من حيث لا يدرون، ومن الركن الذى لا يخطر لهم على بال يقول تعالى:﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ ﴾ .

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾

أى نفينا عنهم سلطان التقلبات وأبعدنا عنهم بحار التلونات فهم أوتاد التمكين وسلاطين التثبيت.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ ﴿٤٦﴾ ﴾

أى أن السير فى الأرض والتفكر فيها وفى آثار صنعته سبحانه أرجأهم إلى هذه الصفة وأبعد عنهم عمى القلوب.

وهذا دال على أفضلية التفكر فى آثار الله الدالة عليه، وهذه صفة المبتدأين لا صفة المنتهين المتفكرين فيه هو سبحانه لا فى آثار صنعته.

فالتعلق بالتفكر فى الصنعة ضعف لا قوة، وهى بداية لا نهاية.

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾

فحقيقة العمى فى القلوب التى فى الصدور لكون العين حاسة تابعة للقلب، لكونه أمير الجوارح، وقد تكلمنا باستفاضة على هذا الموضوع فى كتابنا الموسوم " بتكملة الفتوحات المكية ".

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ ﴾

أقول إن هذا باب كبير لو فتحناه لطال الكلام فيه، وقد تكلم عنه الإمام الشعرانى فى كتابه " اليواقيت والجواهر " وحكى ما ملخصه أن الشيطان يجوز أن يوسوس للأنبياء، ولكن لا يجوز فى حقهم صلوات الله عليهم العمل بوسوسته، هذا خلافاً لمن غيرهم من الأولياء والصالحين.

﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ ﴾

أى أن الخارج عن مقامات الأنبياء من إلقائه إنما يكون لأصحاب القلوب المريضة والقاسية .

﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾

وهؤلاء أهل الرضى عن الله الذين قال عنهم فى سورة البينة:
﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ .

فلما رضى سبحانه عنهم أحب أن يقيمهم فيما يرضيهم وبما يرضونه هم عن ربهم، وهؤلاء أهل الدلال واستكمال الخصال، وتبدل الأحوال، حشرنا الله فى زمرتهم آمين.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ﴾

هو ليل العارفين الطويل الذى يتنفسون فيه الصعداء، برجاء أن يخرجهم خالقهم من ظلمات الأغيار إلى تدرجات الأنوار وتحف الأسرار، وهو ما عبر عنه بالنهار، ثم تكلم عن أهل المكر الذين مكر بهم الحق واستدرجهم من النور إلى الظلمات، فأطال ليلهم وعذب غربتهم وأبعدهم عن حضرته، فهؤلاء ولجوا من النور إلى الظلمات كإبليس وأبى جهل وأبى لهب، واعلم رحمك الله أن علم الولوج هو علم عجيب قد بنى الكون عليه، ومداره كله على الدخول والخروج وإعطاء المزج ثم الفصل، فإنه لابد من أن النهار يكون فيه شئ من الليل ولابد أن يكون لليل بقية من النهار، حتى يصفى هذا وذاك، وهما المرحلتان المشار إليهما بالفترة التى لا هى ليل ولا هى نهار، وهى وقت التمازج والدخول وهى وقت الغروب والشروق، فلا هى ليل ولا هى نهار، وهو وقت التلوين، فلذلك أمرنا الشارع بعدم الصلاة فى الوقتين إلا إذا حدث الفصل والتمكن، ولذلك كانت الصلاة فيما عدا الوقتين مباحة.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ﴾

فكل حقيقة غيره سبحانه وتعالى باطلة، فهو الحقيقة الوحيدة التى لا

يدخل عليها البطلان .

﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾

أى أنه الماسك والقابض الحقيقى لكل ذرات الكون، ولولا قوة قبضه سبحانه لاستحال الكون إلى مادة سائلة لا قابض لها قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾

أى أن أهل الاختراعات العصرية من الكفار لم يأتوا بجديد من حيث جاءوا، وإنما معظم اختراعاتهم من مواد الكون الأصلية، فهم لم يخلقوا ركنا جديدا من أركان المولدات الكونية كالماء والهواء والتراب والنار، وإنما هم اخترعوا وأوجدوا ما أوجدوه من عناصر الكون الأربع، ولم يخلقوا عنصراً خامساً.

فهذه الاختراعات كانت كامنة فى الأرض، ولما جاء موعد ظهورها أظهرها الله تعالى على يد هذا الكافر لكى يقيم الحجة عليه يوم القيامة، ثم إنه سبحانه أفهم هذا الكافر بأنه عاجز على أن يخلق أتفه المخلوقات وهى الذبابة.